الفصل الخامس

البلاغة في كتب النقد

ليست المرحلة السابقة — على ما رأينا من مؤلفاتها — مرحلة تأليف بلاغي ، وإنما هي في الحقيقة مرحلة تمهيد للتأليف البلاغي، وأما مرحلة التأليف البلاغي فقد بدأها — على ما نعلم — عبد الله بن المعتز حين وضع كتابه « البديع » فكان أول كتاب يؤلف في البلاغة ، ويجمع فنونها .

ثم تتالت من بعده المؤلفات ، وكان من أشهر ما ظهر منها في القرن الرابع كتب امتزجت البلاغة فيها بالنقد ، واتخذت كثير من الأمور البلاغية فيها مقاييس ينقد الأدب على أساسٍ منها ؛ يحكم له بالجودة إن كانت جيدة ، ويحكم عليه بالرداءة إن كانت رديئة . وذلك كما في كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) وكتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدي (٣٧١ هـ) وكتاب (الوساطة بين

المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني (٣٩٢ هـ) (وكتاب الصناعتين) للعسكري (٣٩٥ هـ) .

على أن ظهور هذه الكتب يقتضينا أن نقف قليلاً للنظر في بعض العوامل الهامة التي هيأت لظهورها ودفعت إليه .

كان في القرن الثالث للهجرة صراع ما زال يشتد حتى استحكم بين فئتين من أنصار الشعر : فئة محافظة ، ترى البلاغة والجمال في الشعر القديم ، بعموده وصوره وأخيلته ووضوحه وبساطته . وفئة تأثرت بثقافات وافدة كالفلسفة والمنطق .. ترى البلاغة والجمال فيما أنشأ المولّدون والمحدثون من أمثال بشار ، (١٦٧ هـ) وأبي نواس (١٩٨هـ) ومسلم (٢٠٨ هـ) وأبي تمام (٢٣١ هـ) .

واشتدت الخصومة بين أنصار الفريقين ، كما اشتدت بعد قرن من الزمان بين طائفتين أخريين ؛ طائفة تناصر أبا الطيب المتنبي (٣٥٤ هـ) وتعجب بشعره ، وطائفة تتهمه وترذّل شعره .

وكان لا بدّ لأنصار النزعة العربية التقليدية ، في الخصومة الأولى ، خصومة المحافظين والمجدّدين أو القدماء والمحدثين ، من الردّ على من زعم التجديد ، فقيّض الله لهم شاعراً ذوّاقة هو الخليفة عبد الله بن

المعتز (١٤٧ ــ ٢٩٦ هـ) الذي تصدّى للمحدَثين وقام يسلبهم الفضل فيما زعموه من تجديد في كتابه (البديع) .

وكان لا بدّ في الخصومة الأخرى ، خصومـــة أنصار المتنبي ومعارضيه ، من إيجاد مقاييس يرجع إليها المتخاصمون . ولا بدّ من موازنة بين حجج هؤلاء المعجبين وأولئك المتهمين فكان لنا من ذلك (موازنة) الآمدي(٣٧١ هـ) و (وساطة) القاضي الجرجاني(٣٩٢هـ).

ولا شك أَن من الأمور الهامة التي يجب أن نقف عندها وننبـه عليها أنه على أثر هذه الخصومات الأدبية انفتح أمام النقاد وأهل النظر في الشعر باب القول في السرقات الشعرية ، فكان عليهم أن يحلّلوا ما جاء به الشعراء المحدثون من المعاني ، وما عبَّروا بـه من صور ، ثم يغوصوا في الشعر القديم ليوازنوا بين ما وجدوه عند المحدثين وما سبق إليه القدماء من المعاني والصور . ليميزوا المسروق من الأصيل، والمنقول من المبتكر .. فإذا نحن أمام أبواب ممتعة تحمل عنوان السرقات وتضمها كتب النقد ، ولكن معظم ما فيها أمور بلاغيـة تتناول الأساليب والصور الأدبية وطرق الأداء والتعبير .

النقاد بعض آرائهم، فإن روحه ومنهجه هما روح البلاغيين ومنهجهم... إذن فكتاب الصناعتين هو نقطة تحول النقد إلى بلاغة، وفي طريقة تأليف هذا الكتاب وموضوعاته، فضلاً عن روحه ومنهجه أوضح دليل على ذلك»[1].

والعسكري نفسه يقرر ذلك ويعترف صراحة بأنه وضع كتابه الصناعتين ليبيّن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة؛ لأنها لم تكن قد اتضحت عند غيره من العلماء السابقين. يقول في مقدمة الكتاب «فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام... ووجدت الحاجة إلى هذا العلم ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع،... إلا أن الإبانة عن حد البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه»[2].

ومن كلامه يتأكد لدينا أنه أراد بوضع كتابه الصناعتين أن نعرف البلاغة وحدودها، والفصاحة وأقسامها، والبيان وألوانه، وهي تلك الطريقة التقريرية التي افتقدها عند الجاحظ وغيره، ولم نلمسها نحن عند النقاد السابقين الذين يعالجون صناعة الكلام، إلا إذا استثنينا قدامة بن جعفر الذي يُعتبر العسكري امتداداً لطريقته التقريرية.

غير أن كثيراً من الباحثين لم يروا هذا الرأي، وينزهون العسكري عن الفصل بين النقد والبلاغة، ويرون أنه قد مزج بينهما، فالأستاذ الشايب «يجد العلمين مختلطين ولا سيما عند الجاحظ والعسكري، فإن هذا الأخير يجعلهما شيئاً واحداً»[3].

---

(١) النقد المنهجي د. مندور ص ٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) الصناعتين: العسكري ص ٤، ٥ من المقدمة.

(٣) أصول النقد الأدبي الشايب ٥١، تاريخ النقد العربي د. سلام ١/١٥.

ويردد هذا القول أيضاً الأستاذ خلف الله «ويتمثل في القرن الرابع امتزاج البحوث البلاغية التي بدأها قدامة، وابن المعتز، والبحوث القائمة على الذوق الأدبي في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري»[1]. وهو أيضاً ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور الخولي «والفصل الذي عقده أبو هلال في قبح التشبيه بدا فيه أبو هلال الناقد وأدنى البلاغة من النقد، وخلط البلاغة بالنقد، مما عاد على البلاغة بالنمو والحياة»[2].

وأخذت البلاغة في نمو واطراد، والعلماء ينسجون على هذا المنوال، حتى رأينا عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابيه الخطيرين: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يقيم أسس البلاغة واضحة، متميزة المعالم، محددة الصفات، وقد عالجها معالجة أدبية صرفة، لم تخل من خصائص النقد، وفضائل الذوق، وأقام نظريته العظيمة في النظم على أسس من تركيب الكلام وتأليف النحو، إلى أن جاء السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) فصارت البلاغة على يديه قواعد صرفة، وتعريفات محددة، وأقساماً متباينة. وتعريفات كثيرة، واتسمت بالجفاف العلمي الذي خلا من أية لمسة فنية.

وبعد هذا العرض السريع الذي رأينا فيه كيف اختلطت البلاغة بالنقد، وأفادت الملاحظات النقدية في وضع كثير من القواعد البلاغية، ثم انفصلت عنه بعد جهد كبير على يد العسكري، أخذ الباحثون يحددون الفروق بين النقد والبلاغة، وحاولوا أن يفصلوا بينهما بتعريفات متكلفة لا تغني شيئاً عن مزج أحدهما بالآخر في الحقيقة.

قالوا: «إن البلاغة تعنى بالشكل وصورة الكلام، وما فيه من نظم العبارة، وتأليف اللفظ، وتركيب الجمل، ومظاهر الأسلوب، ولا علاقة لها بالمعنى.

---

(١) الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده. محمد خلف الله ١٤٥.

(٢) صور من تطور البيان العربي د. كامل الخولي ٨٩.